http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1656) السنة السابعة - الاثنين (16) تشرين الثاني 2009

بعد ان عصفت به الأحداث ونزعات الجشع الطارئة

سوق دانيال.. ذكريات عن الزبائن والسياسة و خواتين بغداد

ثمة أسواق في بغداد اكتسبت شهرة على الصعيد المحلي والعربي والعالمي ، ايام كانت تعيش عصرها الذهبي بدءاً من أربعينيات القرن المنصرم وحتى اواخر سبعينياته ، وذلك لتخصصها النسائي، ومحاكاتها وتماهيها مع اخر تقليعات الموضة (المودة) المعاصرة . فحينما تهبط من جسر الاحرار باتجاه حافظ القاضي وتنعطف يسارا ستكون عند مدخل الشارع الاشهر بعد ابو نواس ذلكم هو شارع النهر الذي يفضي في نهايته الى سوق دانيال .
شارع النهر كان يسمى بشارع البنات ، وشارع الجمال هو الاسم الذي اطلق على سوق دانيال .
كنا شبابا ونحن نرتاد هذين السوقين ، نتطلع الى وجوه الحسان و (خواتين) بغداد فنتنسم شذى عطورهن ، مبهورين بازيائهن العصرية ، وتسريحات شعورهن واكسسواراتهن وقلائدهن المتدليات من اعناقهن ، كنا على صغر اعمارنا الفتية نشاكس البعض منهن بتهذيب عال ورقة عذبة وكن يردن على المشاكسة بلطف ومحبة ، كانا سوقين للعرائس والعرسان ايضا ، وللعوائل البغدادية ، غير ان الصورة تغيرت تماما بعد الثمانينات لاسباب اجتماعية وتجارية واقتصادية وثقافية وسياسية ، وللبحث عن هذه الاسباب تجولت (المدى) بين اروقة وممرات سوق دانيال وحاورت بعض تجاره واصحاب المحلات.

بغداد / شاكر المياح
تصوير / مهدي الخالدي

يقول التاجر (جبار الكناني) : ذكرياتي عن سوق دانيال يكتنفها الجمال والسعادة ، كان زمنا رائعا ذاك الذي عشناه ونحن في هذا السوق ايام عصره الذهبي ، ففي ستينات القرن الماضي كان مزدهرا وضاجا بالحركة والزحام ، لان القدرة الشرائية للمواطن انذاك في اعلى مستوياتها ، والدينار العراقي هو الاعلى بين عملات دول المنطقة، فسعر صرفه يساوي ٣،٣ دولار ناهيك عن كونه متخصصا بالاقمشة النسائية وبدلات الاعراس والاكسسوارات والعطور والكوزماتيك والدانتيلات ولوازم الخياطة وعلى هذا فهو خاص بالنساء ، وكان يسمى في بعض الاحيان بسوق الاعراس ، وسوق (الجوخجية) الملاصق له خاص بالرجال والذي تحول الان الى سوق للستائر ومن تجاره المعروفين المرحوم (الحاج حسين الطويل وشقيقه هادي ، وعبد الامير ، وال الحمداني).

× متى تأسس سوق دانيال؟

تأسس سوق دانيال قبل انشاء سوق (العرب) الذي بناه (شاؤول طوبا) في عام ١٩٣٥ ، وهذا يعني انه بني في عشرينيات القرن المنصرم ، وربما كان ذلك في عام ١٩٢٥ ، وفي ايام تسفيرات اليهود العراقيين اضطر (شاؤول طوبا) الى بيعه لآل (مكية) و (عبد الامير الصراف) .

اما سوق دانيال فقد بناه (مناحيم دانيال) وهو من الطائفة اليهودية العراقية التي ما تزال تديره حتى الان ، باستثناء بعض المحلات التي اشتراها المرحوم (محسن الجزائري)، وتاجر اخر يلقب ب (العاني).

وكيف هي حركة السوق الان؟

.ما تزال متقلبة ، فتارة تجدها نشطة ، واخرى كاسدة وخاملة، سيما وان جل زبائنه من النساء ، ولا يخفى بان انتشار الاسواق بشكل واسع في معظم احياء بغداد قد اثر سلبا على حركة السوق ، وكذلك وفرة المستورد من الالبسة الجاهزة ومن مناشئ عديدة ، فضلا عن عزوف النساء عن الخياطة مكتفيات بما توفره تلك الاسواق من بضائع رخيصة .

المرأة العراقية كانت تتمتع بذوق رفيع ، فاختياراتها كانت تتماهى مع الحداثة ومعطيات العصر ، ومع كل ما هو جديد في عالم الازياء النسائية التي تنتجها دور العرض العالمية من تصاميم تتسم بالخطوط الفنية ذات الالوان الجميلة واللمسات الانيقة .

المرأة العراقية ومجلات الازياء

ويواصل الكناني حديثه فيقول: شهدت تلك الاعوام رواجا واسعا لمجلات الازياء والتي غالبا ما ترفق معها (باترونات) لاحدث الازياء العالمية ولمختلف الاحجام والاعمار مثل المجلة الالمانية (البردا) والمصرية (حواء) فكانت عاملا مشجعا للمرأة العراقية والبغدادية على وجه الخصوص لخياطة ملابسها وبدلاتها وازيائها على وفق تلك (الباترونات) ، وحتى ملابس الاطفال . مجلة (البردا) كانت تطبع باللغتين العربية والانكليزية ويكاد لا يخلو اي بيت بغدادي منها ، اما اليوم ، فان المجلات النسائية تخصص صفحتين او اكثر لعرض صور لبعض الازياء من دون ذكر اية تفصيلات عنها، ناهيك عن جودة الاقمشة المستوردة ومن مناشئ عالمية معروفة (المانيا، فرنسا، اليابان) ، اما الان فاغلب بضائعنا نستوردها من (دبي)، وبتقديري الشخصي فان المرأة العراقية ما زالت تميل الى خياطة ملابسها لان الخياطة هواية قبل ان تكون حرفة ، فقد اعتدت ان افتح ابواب محلي عند الصباح الباكر وتحديدا في الساعة السابعة كل يوم فتتقاطر عليه الموظفات اللواتي يعملن في المصارف والدوائر القريبة من السوق لشراء ما يحتجن اليه من الاقمشة المختلفة .

وقال (حيدر عبد) وهو تاجر بلوازم الخياطة : محلي خاص بلوازم الخياطة ، استأجرته منذ مدة طويلة تربو على الثلاثين عاما ، تميز السوق بشهرته التي طبقت الافاق بسبب جودة بضائعه المستوردة من اوروبا واليابان ، اذ نادرا ما كنا نسمع ببضائع من سنغافورة او الصين او ماليزيا او تايلند ، وحسن التعامل مع الزبائن والصدقية العالية بين التجار واصحاب المحال التجارية ، فضلا عن النزاهة والامانة ، الا ان شهرته بدأت بالتراجع عقب الحصار في بداية عقد التسعينيات ، وبلغ هذا التراجع ذروته بعد عام ٢٠٠٣ وما رافقها من احداث .

المصداقية والازدهار التجاري

×من هم اشهر تجار سوق دانيال؟

.هم كثر ، واذكر منهم (محلات الكاظمي، وبيت شبر ، وبيت الازري ، وحميد العاني) وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم والذين كانوا يحظون بسمعة راقية ، وكانت المصداقية حاضرة لديهم في تعاملاتهم التجارية ، اذ اسهمت في الازدهار التجاري والاقتصادي في تلك الحقبة ، فقد كان المجتمع البغدادي انذاك يعد من المجتمعات المتمدنة والمتقدمة في منطقة الشرق الاوسط ابان عقود الخمسينات والستينات والسبعينات.

متبضعات السوق سافرات ومحتشمات

ويسترسل قائلا : ولما كان سوق دانيال خاصاً بالنساء ، فقد كن يرتدنه وحدانا وزرافات وهن سافرات وفي غاية الحشمة والوقار ويتمتعن بخلق عال ، وبعضهن سافرات تحت العباءات السود المطرزة او المذهبة ، او بحواش محلاة بالدانتيل الاسود وهن بكامل زينتهن وحليهن ، معطرات ومتأنقات واغلبهن من بيوتات معروفة وموصوفة بالثقافة والتحضر والالتزام الاخلاقي والاجتماعي .

بدلات الاعراس السورية هي الرائجة

التاجر (صادق مصطفى عبد الحسين) ادلى بدلوه فقال : ورثت التجارة من والدي الذي كان يتاجر بالسجاد او (الزوالي) في هذا السوق ، اذ عملت معه منذ نعومة اظفاري ، غير اني تحولت الى الاتجار ببدلات الاعراس منذ عام ١٩٦٠ ولحد الان.

ثم تنهد وقال : كان العراق ينعم بالامان والخير الوفير ، وسوق دانيال مزدهرا ومزدهيا ومزدحما بالمتبضعات وبالعوائل ، حتى ان المرء لا يكاد يجد له موطئ قدم كي يكمل خطواته على ارضيته المبلطة والمرصوفة بشكل جميل .

لقد تراجعت حركة السوق ، وانخفضت اعداد المتبضعين والمتبضعات منذ التسعينيات وحتى الان ، بسب الاحداث التي عصفت بالبلاد ، ليس السوق وحده ، بل التجارة برمتها ومثلها الاقتصاد العراقي الذي شهد انهيارات كارثية ادت الى تدني المستوى المعيشي للمواطنين وانخفاض مداخيلهم وسعر صرف العملة العراقية .

ويضيف عبد الحسين : جميع زبوناتنا كن محترمات غير انهن غادرن عالمنا الى العالم الاخر ، منهن زوجات وزراء وسفراء وبنات مسؤولين معروفين ، وكبار ضباط الجيش والشرطة ، وطبيبات ، ومحاميات ، وحتى الفنانات ومنهن (مائدة نزهت واخواتها ، وزهور حسين ، وعفيفة اسكندر ، وسليمة باشا وناهدة الرماح والمذيعة كالادس يوسف) وغيرهن .

اغلى بدلة عرس بعتها لمن؟

كانت (فرشة عرس) بعتها لزوجة مسؤول رفيع المستوى في النظام السابق بمناسبة زواج ولدها وكانت بصحبة افراد حمايتها الخاصة ، ولم تبخل على عمال المحل فاعطت لكل منهم (بخشيشا) .

ويضيف : لقد اختلف وضع السوق الان عما كان عليه سابقا حتى في معماريته ، اذ اضحت ممراته ضيقة نتيجة زحف واجهات المحلات عليه بشكل عشوائي ، وكذلك طبيعة البضائع المتوفرة فيه والاسعار ونوعية رواده ، اما المناشئ فحدث ولا حرج ، صينية رديئة ربما هي من الدرجة الخامسة او السادسة ، ولذلك فقد توقفت معظم معامل الخياطة والتطريز ومنها معملي الذي كنت اصنع فيه بدلات العرائس ، لان البدلات المستوردة من سوريا ارخص مما لو كنا ننتجها محليا لان اجور الايدي العاملة مرتفعة وكذلك الاقمشة والمواد الداخلة في خياطة هذه البدلات .

×ما هي اسعار بدلات الاعراس ؟

.العراقية تتراوح اسعارها من ١٠٠ – ٢٠٠ الف دينار ، والسورية من ٨٠ – ١٠٠ الف دينار .

السوق و نضالات العراقيين ضد الاستبداد

يقول التاجر (رحيم سامي ابو حيدر) :وصلت شهرة سوق دانيال الى اوروبا والعالم العربي ، فمن بعض زبوناته زوجات وبنات السفراء واعضاء الهيئات الدبلوماسية الاجنبية والعربية ، وهو معروف بجماله وحسن تنظيمه وروعة معروضاته والبضائع تصله من جميع انحاء العالم .

سوق دانيال مر بعدة مراحل وازمنة مختلفة ، منها مرحلة ما بعد انقلاب شباط الاسود ١٩٦٣ وسيطرة النظام العفلقي عليه من خلال جلاوزته الذين عاثوا فيه فسادا وانلوا اشرف تجاره واصحاب محاله النجباء ، ، وفي المرحلة الراهنة يبدو انه يسير نحو الاحسن من حيث تعددية المناشئ ونوعية البضائع وتغير ذائقة المواطن .

×ما الفرق بين زبائن الامس وزبائن اليوم؟

.من المؤكد ان امس هو غير اليوم ، وكذلك هم الناس ، والاذواق ، والاشياء ، فما كنا نراه جميلا قبل ثلاثين عاما ، نجده مشوها في وقتنا الراهن ، وارى ان الذائقة في الواقع الحالي هي افضل مما كانت عليه قبل عشر سنوات ، ومعيار الذوق هو الانعكاسات النفسية لافراد المجتمع ، فكلما عمت الرفاهية ، كلما تحسنت الذائقة الجمعية ، وللسوق زبائن من مختلف الشرائح الاجتماعية يوم كانت الطبقة الوسطى المحرك الاساس للمشهد الاجتماعي ، وللوسط التربوي الحظوة المتقدمة فالمدرسات والمعلمات كن يشكلن النسبة الاعلى بين زبائن السوق .

التاجر (حمدي صالح سعيد) كان حاضرا فابى الا ان يشاطرنا الحوار فقال : امضيت في هذا السوق اكثر من اربعين عاما كان للحريات المتاحة للمواطنين القدح المعلى في ازدهار وانتعاش السوق ، فالنساء اللواتي كن يؤمنه يرتدين احدث الموديلات ، وكان مصدرا يؤمن البضائع لجميع تجار العراق ويرفد اسواق المحافظات بكل ما هو حديث من الاقمشة ، وحالما تظهر الازياء الجديدة في اوروبا تصل الى سوق دانيال ، اما الان فان كل شيء قد تغير نحو الاسوأ وليس للاحسن على عكس ما هو جار في العالم المتمدن ، والتجار السابقون كانوا ذوي اختصاص وسلوكهم التجاري على قدر كبير من الوعي والسلوك التجاري المرموق ، اما تجار هذا الزمن فان همهم الاكبر الربح الفاحش والجشع على حساب السمعة والذوق والجودة ، لان بعضهم طارئين على التجارة ولا يفقهون فلسفتها ومعاييرها الاخلاقية والسلوكية.

×هل هناك غش في تجارة اليوم؟

.هو ليس غشا بالمعنى الاصطلاحي ، بل الافتقار الى العقلية التي تستوعب معطيات العصر الراهن ناهيك عن ظهور مستوردين في كل محافظة من محافظات العراق في الوقت الذي كانت تجارة المحافظات تمر عبر العاصمة بغداد .

ويسترسل : مر بسوق دانيال الكثير من رجالات العراق ، من هنا مر الملك غازي ، ونوري السعيد وعبد الكريم قاسم وصولا الى احمد حسن البكر ، السوق كان ملتقى للاستقراطي العراقي ، ومعظم التجار كان لهم اصدقاء يشغلون المناصب العليا في الدولة .

سوق دانيال والسياسة

ويؤكد التاجر (ابو حيدر) : شهد السوق في عقد الستينات نشاطا سياسيا للاحزاب القومية التي لعبت دورا في التأثير على الاداء التجاري للسوق، ففي خان (زرور) على سبيل المثال كانوا يطبعون جريدة سرية ضد الزعيم عبد الكريم قاسم ، وجميع المؤامرات كان منطلقها سوق دانيال والاسواق المجاورة له التي لم تكن تحت مراقبة السلطة انذاك ، وفيها يتم توزيع الادوار على تنظيمات تلك الاحزاب ، وهناك اسماء لعبت ادوارا قذرة ضد التجار الشرفاء والوطنيين المخلصين ، وتعرضوا للقوى الوطنية العاملة في السوق عام ١٩٦٣ ، وتم تسليح عناصرهم المجرمة وتم قتل العديد ممن كانوا ينتمون الى الحركات الوطنية ، واخرين اقتيدوا الى المعتقلات والبعض منهم تم اعدامهم وشردوا اناسا كثيرين .

شهرته وصلت الى اوربا، وزبائنه من السفراء واعضاء الهيئات الدبلوماسية

الكثير من شواخص بغداد في هذا السوق تمت ازالتها

في خان جغان

قادني محدثي (ابو حيدر) الى الزاوية الغربية منه موضحا لي بان هذا المكان كان يوما ما خانا يدعى (خان جغان) ، وهو مكون من طابقين تخصص في بيع المصوغات الذهبية يؤمه الناس من كل حدب وصوب ولهذا ضرب به المثل القائل (صاير مثل خان جغان) لكثرة الداخلين اليه والخارجين منه ، اما اليوم فقد بات متهالكا وآيلا للسقوط حتى ان المصور وجد صعوبة في تصوير الطابق العلوي وكنا نخشى ان ينهار الجزء الذي صعد اليه .ولم يتبق منه سوى مكان صغير اتخذه احد الاشخاص محلا لبيع الشاي لاصحاب المحال التجارية .

في مقهى الخفافين

هو مقهى ما يزال قائما كان يطلق عليه مقهى التجار ملاصقة لجامع الخفافين الذي يطل على نهر دجلة مجاورة لسوق دانيال ، وفي مدخل السوق كانت هناك منارة للشيخ (محمد السمري) قوضت اركانها من قبل وزارة الاوقاف المنحلة في عام ١٩٩٢ وتعتبر من المنائر الاثرية الرائعة، وكذلك تم تقويض جامع (القبلانية) وانشأت الوزارة على ارضه محلات كثيرة استأجرها تجار الستائر ولم يتبق منه سوى مكان بحجم غرفة صغيرة اتخذها اصحاب المحال مصلى لهم ، وكانت بالقرب منه (حسينية) قديمة تبرع عدد من التجار لترميمها وبعد مدة القي القبض على من رممها وظلت مصائرهم مجهولة الى اليوم وعلى اثر ذلك احتج التجار واغلقوا السوق حدث هذا ايام كان (ناظم كزار) مديرا للامن اي في عام ١٩٧٢ وبسبب الاحتجاج جرت اعتقالات جماعية للتجار ومن بينهم تجار من بيت (الصوفي) واخرين من مدينة الكاظمية، وتاجرين اخوين من (بيت الحمداني)، منذ عام ١٩٦٣ وحتى الاطاحة بالنظام السابق كنا تحت السطوة البعثية وجاء التغيير لنتنسم عبق الحرية.